

قصيدة البردة للإمام البوصيري: تحليل نقدي

د. محمد إرشاد الحق

الأستاذ المساعد، كلية النساء بسرينغر

توطئة

لقد ظهر المديح النبوي مع مولد النبي ﷺ وانتشر مع انتشار دعوته النبوية وامتداد الفتوحات الإسلامية، ومن أهم خصائصه أنه شعر ديني ينبثق من رؤية إسلامية مع التركيز على مدح رسول الله محمد بن عبد الله بتعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته والأماكن المرتبطة بحياته، تطبعه الروحانية الصوفية، ويتميز هذا النوع من الأدب بصدق العواطف والمشاعر ونبيل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب النبي محمد بن عبد الله ﷺ، وهذا النوع الأدبي لم يزدهر ويترك بصماته إلا مع الشعراء المتأخرين، خاصة مع الشاعر البوصيري في القرن السابع الهجري، ففي هذه المقالة حاولت إن أتناول بعض أبرز المزايا والملاح في القصيدة المذكورة معتمدا على المنهج النقدي الانطباعي.

حياة الشاعر بين السطور

هو محمد بن سعيد بن حماد بن تحسن بن أبي سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجي، البوصيري المصري المكنى بأبي عبد الله، والملقب بشرف الدين ولد يوم الثلاثاء سنة ٢٠٨ هـ بقرية دلاص، كانت أمه من دلاص وأبوه من بوصير، ولذلك اشتهر بالبوصيري نسبة لمكان ولادته، وتوفي في سنة ٦٩٥ هـ بالمارستان "المستشفى" المنصوري من القاهرة، ولقد كان للنشأة التي عاشها الإمام البوصيري أثرها الكبير في شخصيته، فقد حفظ القرآن الكريم ودرس العلوم الدينية واللغوية والسيرة النبوية في المساجد، كان جياش العاطفة في محبته للرسول،^(١) صادق الإيمان، قوي اليقين؛ تغنى بجمال النبي ﷺ وبحبه في خشوع وتوسل، اشتهر بين حلقات أدبية بسبب قصيدته المعروفة التي نسجها على منوال بردة كعب بن زهير في مدح الرسول صلي الله عليه وسلم.

لمحة عن القصيدة

هناك عدة أقوال لتسميتها "البردة" منها: الأول، قيل: إنه سماها "البردة" لاشتغالها

على مناقب الرسول، وبهذا قد قصد المعنى المجازي. (٢) والثاني، قيل كأنه شبه قصيدة
(البردة) لكعب بن زهير والتي مطلعها.

بانثُ سعادُ فقلبي اليومَ متبولٌ مُتيمٌ إثرها، لم يُفدَ مكبولٌ

حيث أراد البوصيري أن تكون له قصيدة تحمل اسم قصيدة كعب وذلك من باب
التبرك بها. والثالث، قيل للبردة اسم آخر وهو "البراءة" أي الشفاء، مرض البوصيري مرضاً
شديداً - قد أصابه الشلل، ثم دعا الله وتوسل أن يشفيه، رأى أحسن طريقة أن يمدح
الرسول ﷺ بقصيدة يذكر فيها محاسن الرسول فقرض هذه القصيدة، ونام ثم رأى في
المنام أن الرسول ﷺ يمسح بيده المباركة على وجهه وألقى عليه الرسول ﷺ البردة في
المنام، فقام سليماً ومعافياً وشفى من مرضه.

قسّم الدارسون قصيدة البردة إلى عشرة أجزاء والموضوعات الهامة التي تناول هذه
الأجزاء على نحو: النسب، التحذير من هوى النفوس، مدح الرسول الكريم ﷺ، مولده،
معجزاته، القرآن الكريم، الإسراء والمعراج، جهاد الرسول ﷺ وغزواته، التوسل والتشفع،
المناجاة والتضرع. وعدد أبيات البردة مائة واثنان وستون بيتاً، قد زاد بعضهم بعض
الأبيات في المقدمة وفي الخاتمة.

هاجم بعض الفقهاء قصيدة البردة من وجهة نظر عقائدية حيث اتهموا الإمام
البوصيري بالغلو في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم واعتبروا أن بعض الأبيات فيها غلوٌ
وشطْحٌ صوفي.

لكن يبدو لمن يتعمّن في هذه الأبيات أنها لا تدلّ على أي غلو؛ فهي من باب شدة
محبة الرسول وتوقيره، والشعراء لهم أن يببالغوا إظهاراً للحب والولاء، ولا يعقل أن يمدح
شاعر مسلم النبي ﷺ وهو مؤمن موحد يحفظ ويتخلق بخلق النبي ﷺ وفي ذهنه وفكره أن
يؤلهه، وهو الذي يقول في القصيدة نفسها منكرًا على النصارى إطراء سيدنا عيسى عليه
السلام:

واحكم بما شئتَ مدحاً فيه واحتكم

دَعَّ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فَيَنْبِئُ بِمِ

تحليل نقدي

لقد أسهمت البردة في خلق فن جديد في مدح النبي ﷺ وأظهر ما يسمّى بالبديعيات، وهي قصائد غرضها مدح الرسول ﷺ وكان من شروطها أن تكون قافيتها على حرف الميم وأن تحتوي على أكبر قدر من فن البديع والزخرفة اللفظية فتشمل جميع فنون البديع من جناس وسجع ولف ونشر وطباق ومقابلة وتوريه وترصيع وتصريع وبراعة استهلال، وحسن مقطع، والتكرار واختيار الألفاظ القوية الجزلة.

إن أفكار قصيدة البردة مستمدة من معارف الشاعر ومن ثقافته وبيئته العربية والإسلامية وبعض الأفكار تقليدية كالغزل والوقوف على الأطلال وغيرها، وكذلك موسيقى القصيدة الداخلية والخارجية ناجحة والتي تساعد القصيدة على تناغم الجمل والمفردات، وهي موسيقى هادئة توحى بمدى ما يفيض على قلب الشاعر من حب واحترام للرسول، ولقد نوع البوصيري الأسلوب ما بين خبر وإنشاء، وتقديم وتأخير، وأكثر من الجمل الفعلية وابتعد عن الجمل الاعتراضية، مطبقاً بمهارة عالية حُسنَ تنوع الأسلوب الممتزج بالعاطفة الجياشة المعبرة عن شدة الحب والاحترام للرسول ﷺ، وكذلك امتاز البوصيري في مدائحه بقوة الأسلوب وحسن الصياغة، وجودة المعاني، وجمال التشبيهات، وروعة الصور⁽³⁾ انظر إلى قوله:

هَآكْ مِنْ صُنْعَةِ الْقَرِيضِ بُرُودًا: لَكَ لَمْ تُحَكْ وَشِيهَا صَنْعَاءُ

نزعة صوفية

لقد عبّرت بعض أبيات البردة عن بعض المعاني الصوفية مثل:

١- إن الرسول ﷺ إنسان كامل بالمعنى الصوفي:

محمّدٌ سيد الكونين والثقلين: والفريقين من عربٍ ومن عجم

٢- بيان حقيقة النور المحمدي الأزلي:

وكُلُّ آيِ آتَى الرُّسُلِ الْكِرَامِ بِهَا: فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ

فإنَّهُ شمسُ فضلٍ هُم كواكبُها : يُظهِرنَ أنوارها للنَّاسِ في الظُّلمِ

٣- سيِّدنا محمد هو صاحب الشفاعة وسيد الكونين:

هُوَ الحبيبُ الذي تُرجى شفاعتُهُ: لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الأهوالِ مُقْتَحَمٍ

٤- مولد الرسول ﷺ:

أبانَ مولدُهُ عن طيبِ عنصُرِهِ : يا طيبَ مبتدأ منه ومُختَمٍ

٥- معجزات النبي ﷺ تأييداً للدعوة الإسلامية:

جاءت لِذِعرَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً: تمشي إليه على ساقٍ بلا قَدَمٍ

٦- الحقيقة الروحية المحمدية.

لا طيبَ يَعِدِلُ تُرباً ضَمَّ أعظَمُهُ : طوبى لِمُنْتَشِقٍ منه وملتئمٍ

٧- تفوق النبي ﷺ على غيره من الخلق والرسل خلقاً، وخلُقا، وعِلماً، وكرماً:

فاقَ النَّبِيينَ في خُلُقٍ وفي خُلُقٍ : ولم يُدانوه في عِلْمٍ ولا كَرَمٍ

وفي هذا يذكر د. محمد زغلول سلام "وظهرت الصّوفيّة ظهوراً قوياً في الجزء الأخير من البردة حيث يتوسل بالرّسول" (٤)

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذبه : سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحادِثِ العَمِيمِ

ولنَ يَضِيقَ رسولُ اللهِ جاهُكَ بي : إذا الكَريمُ تَجَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ

يا نَفْسُ لا تَقنِطِي مِنَ زَلَّةٍ عَظُمَتْ: إِنَّ الكَبائِرَ في الغُفْرانِ كاللَمَمِ

لعلَّ رَحمةَ رَبِّي حينَ يَقسِمُها : تأتي على حَسَبِ العِصيانِ في القِسمِ

نزعة تربوية:

فلا تَرُمِ بالمعاصي كَسَرَ شهوتِهِ : إِنَّ الطَعامَ يُقوِّي شهوةَ النِّهَمِ

والنَّفْسُ كالطِّفلِ إنَّ تُهْمِلُهُ شَبَّ عَلى : حُبِّ الرِّضاعِ وإنَّ تَفطِمُهُ يَنفِطِمِ

لقد فطن الإمام البوصيري إلى ملامح تربوية تتمثل في ضرورة ترويض وتهذيب النفس

وتربيتها على الفضائل منذ الصغر وكسر شهوتها حيثُ في تشبيهه رائع صوّر لنا أن النفس كالطفل تماماً تحتاج إلى ترويض تربويّ وعناية كاملة منذ الصغر فالنفس مثل الطفل، إن تركه بدون رعاية وتوجيه صحيح ينشأ فاسداً فلا بدّ من الرعاية والتوجيه والإرشاد وهذه حقيقة تربوية.

يقول الدكتور أحمد عمر هاشم حول القصيدة المذكورة نحو:

"وكانت أعظم قصائده وأروع فرائده درة الشّعْر الفصيح بُردة المديح التي لم يشبهها سابق، ولم يقترب منها لاحق، وكم قصائد ألفت على غرارها ونهجت طريقها، ونسجت على منوالها، ولكنها لم تصل إلى رتبة بردة البوصيري" (٥) وجدير بالإشارة إلى معارضات الشعراء للبردة؛ فلقد عارضَ البردة وشطّرها وشرحها ونسج على منوالها الكثير من الشعراء الذين جاءوا بعد البوصيريّ في العصور المختلفة حتى العصر الحديث اقتداءً به نظراً لسمو عاطفتها وروعة معانيها فهي بمثابة نغم علوي يشدو به المحبون الأتقياء تعبيراً عن شدة الحبّ للرّسول ﷺ حيث بلغت شروحها أكثر من ٢٠ شرحاً ولها عدة معارضات أشهرها معارضة أمير الشعراء أحمد شوقي في "نهج البردة" حيث قال:

ريّم على القاع بين البان والعلم: أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرْم

خاتمة

وفي الختام يمكن لنا أن نقول أنه لم يحظَ نصُّ شعريّ أو نثريّ في تاريخ الأدب العربيّ على مرّ عصوره الممتدة من العهد الجاهليّ حتى العصر الحديث بالاهتمام على جميع المستويات الرّسمية أو الشّعبية أو الأكاديمية بمثل ما حظيت به بُردة الإمام البوصيري لما تغنّى بها المنشدون وعارضها الشعراء وتفنن في شرحها الكُتّاب، وتبارى الخطاطون في كتابتها بجميع الخطوط والقُصاص في روايتها والطلاب والباحثون تسابقوا لدراستها وكذا لم تسلّم من نقد النقاد وتقوّل المعرضين والنقاد، لكنها مازالت بسحرها تستولي على القلوب والأفئدة وتخلبُ لبّ العارفين وأهل الوجد والذوق حتى جميع الأوساط العلمية والأدبية والدينية.

وقد استنتجنا من خلال الدراسة أن أفكار قصيدة البردة مستلهمة من معلومات

الشاعر وثقافته وبيئته العربيّة والإسلامية إلا أنّ بعض الأفكار تقليدية كالغزل والوقوف على الأطلال وغيرهما، وأنّ موسيقى القصيدة الداخلية والخارجية ناجحة والتي تساعد القصيدة على تناغم الجمل والمفردات، وهي موسيقى هادئة توحى بمدى ما يفيض على قلب الشاعر من حبّ واحترام للرّسول ﷺ، ولقد فرّع البوصيري الأسلوب ما بين خبر وإنشاء، وتقديم وتأخير، وأكثر من الجمل الفعلية وابتعد عن الجمل الاعتراضية، وطبّق بمهارة عالية حُسنَ تنوع الأسلوب ومزجه بالعاطفة الجياشة المعبرة عن شدة حبّ الرسول ﷺ،

والنزعتان والرئيسيتان اللتان تتشاجر بين معظم الأبيات هما النزعة الصوفية والنزعة التربوية، ولقد امتاز البوصيري في مدائحه بقوة الأسلوب وحسن الصياغة، وجودة المعاني، وجمال التشبيهات، وروعة الصور. ونحو هذا الاهتمام بالبردة يدلّنا على أن البوصيريّ كان متفوقاً على غيره من الشعراء من حيث الشاعريّة والاستعداد الطبيعيّ، فلديه طبع متدفق للإبداع الشعريّ يتقن الصنعة والصناعة الشعريّة ليصل إلى أعلى درجات الإتقان والكمال مما لفت الآخرين باتباعه وتقليده.

هوامش المراجع والمصادر:

- ١- بردة المديح المباركة، د. أحمد عمر هاشم، دار المقطم، القاهرة ١٩٩٥م، ص ٧
- ٢- البردة: د أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٤
- ٣- البوصيري، شاعر المدائح النبوية وعلمها، د. على نجيب العطوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٨٦
- ٤- انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج ١، ص ٢٧٣
- ٥- بردة المديح المباركة، د. أحمد عمر هاشم، دار المقطم، القاهرة ١٩٩٥م، ص ٧
